المتن والهامش

شهادات من باحثات لبنانيات

فاديا حطيط وعزة شرارة بيضون

نعاني، نحن النساء في ظل المجتمعات الذكورية، من مظاهر تهميشٍ تطال كثيرًا من جوانب مُعاشنا وتعبيراته. ويتخذ هذا التهميش أشكالًا متنوعة، منها مكشوفة وتطال مختلف الشرائح النسائية، ومنها مواربة تطال، على الأخص، النساء اللواتي يعملن في مجالات ظلت لوقت طويل محصورة بالرجال. هؤلاء النساء ينتمين إلى فئات اجتماعية وثقافية قادرة، على الأرجح، على مواجهة الأشكال المكشوفة من التمييز التهميشي لهن. أما الشكل المخفي والموارب فإنه يستلزم تغيير المنظور الذي «دُفعت» إلى تبنّيه، و«خلق» منظور جديد يعدن فيه الاعتبار إلى مصالحهنّ الخاصة وأهدافهن البعيدة المدى في تنظيم أكثر عدلًا للعيش وللتواصل الإنساني.

إن وصول النساء إلى مواقع هامة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي صار اليوم في حكم الواقع المستتب، ولكن نظرة سريعة على واقع الإنتاج الفكري، خصوصًا حينما يكون في مستوى التنظير الفلسفي، يظهر نوعًا من التهميش الممارس على النساء فيه، إلى درجة تدفع بالبعض لعزو الأمر إلى تركيبة بيولوجية نفسية وذهنية خاصة بالنساء.

ولأن الشكل الموارب من التهميش يستلزم التأمّل الواعي للكشف عنه، فإننا رأينا أن نسبر تجربة مجموعة من الباحثات اللبنانيات العاملات في مجال الفكر والبحث والثقافة؛ وذلك استدعاء لتعبيراتهن عن الهامشية والتهميش تُضاف إلى التعبيرات العلمية «الحيادية» عن المفهومَين، مفترضين أن هؤلاء النساء، وبسبب عملهن في الفكر والبحث والثقافة تحديدًا، يملكن «فصاحة» التعبير الكلامية التي تسمح بصوْغ رهيف ومُرصَن لاختباراتهن لضروب التهميش ولطرق مواجهتهن لها.

هكذا، تلاقى حول طاولة مستديرة خمس عشرة من أعضاء «تجمع الباحثات اللبنانيات»، دُعين إلى التأمّل في اختباراتهن، والتعبير عنها، في فسحة فريدة واقعة على تقاطع «الخاص» و«العام». أما الأسئلة المحفزة على إطلاق الكلام فكانت:

أوّلًا: هل تدرك الباحثة ذاتها على أنها هامشية / مهمّشة على النشاط المجتمعي اللبناني في إطار مهنتها كباحثة/ أكاديمية/ عاملة في المجال الثقافي؛ كيف ينعكس ذلك على أبعاد / مكوّنات وجودها الأخرى؟ وكيف يتوافق/ يتنافر إدراكها لذاتها مع الصورة التي يحملها «الناس» لها، كباحثة؟

ثانيًا: ما هي المشاعر التي تطلقها لديها هذه الهامشية، إذا وُجدت؟ ما هي، وفق معيشها، «المكافآت» وما هي «الخسارات» المحصّلة من الهامشية/ التهميش في مجتمعنا.

هذه الأسئلة استثارت لدى الباحثات المشاركات في الطاولة مداخلات متنوعة، تبعًا لتجربة كل منهن والعراقيل التي واجهنها، ومبتعدة أحيانًا في اتجاهات عن المحور الأساسي للطاولة، بحيث إن جمعها في سياق معين كان أمرًا غير هيِّن. هذا الأمر اقتضى منا «قراءة» تراعي السياق العام، مع محاولة التقاط التفاصيل بالقدر الأكبر الممكن. ونقدم في الجزء الأول العناوين الرئيسة لهذه القراءة ونعرض في الجزء الثاني المداخلات بالترتيب الذي جرت فيه.

أولًا: المعاني المستقاة

إذن، برز في ثنايا الكلام المُرسل حول الهامشية والتهميش لدى هذه المجموعة من النساء تباينٌ في التعبيرات وتنوّعٌ في الاختبارات تمحورت حول عناوين نثبتها في ما يلي:

في المصادر:

تعددت مصادر التهميش وأسهم في إحداثه عوامل من مستويات مختلفة هذه بعضها:

اللاوعي الجمعي: يترك هذا الموروث في جانبه الديني بصماته في التكوين النفسي اللاواعي وهو يساهم في تهميش المرأة العربية، بحيث يعيق التوصّل إلى صياغة فردية لذات أنثوية فاعلة تضم في طياتها بدون تنافر صور الزوجة والأم والأخت والابنة (في الاستماع التحليلي في عيادتي لأية امرأة، أجد أنها تتكلم كأخت كزوجة كبنت أو كأم، ولا تجد نفسها إلّا إذا مرت بكل هذه المواقع). وفي الجانب الثقافي منه يحيل هذا اللاوعي إلى الصراع ما بين الذاكرة النسائية المبرمجة الموروثة من السلالة ومن المجتمع وما بين الصور التي تسعى المرأة لتكوينها عن نفسها، مما يضعها في دائرة تهميش تتطلب قدرًا من الشجاعة لمواجهتها والخروج منها (أعيش تصادمًا داخليًّا بين صور عن حالي أخذتها عن المجتمع وعالقة في ذاكرتي).

الواقع الجندري التمييزي: أشارت أكثر المشاركات إلى التمييز اللاحق بهن، باعتبارهن نساء، إن على صعيد عدم الاعتراف بالمساواة بينهن وبين زملائهن في

العمل (كنت أشعر بالتهميش في الكلية إذ كان هناك تمييز في القسم بين الأساتذة والأستاذات، أعاني من تمييز يهمشني بين مجموعة من الأساتذة «الرجال»، المدعومين سياسيًّا)، أو لجهة المعاملة التمييزية التي عشنها في الطفولة مع الإخوة الذكور (أشعر أنني أعيش في الهامش وعلى الهامش في عائلتي والتمييز الذي لمسته باكرًا كوني بنتًا وليس ولدًا)،أو لجهة مشاعر غائمة بالتهميش غير المحدد (أحس بنفسي أني امرأة/ أنثى كطير أغرد خارج سربي).

الواقع السياسي الاجتماعي: وردت إشارات متنوعة إلى النظام الاجتماعي السائد والمتسم بالمحسوبية وبالواسطة وبالطائفية باعتباره مصدرًا للتهميش من جهة لكونه معتديًا على صورة الذات التي عملت المرأة لتكوينها عن نفسها (أشعر بأني مهمّشة لأنني لا أنتمي إلى أية واحدة من الطوائف المعروفة؛ أنا لا أشعر، مثلًا، أنني مسيحية أو مسلمة أو درزية)، أو لكونه منحازًا،حكمًا، للذكور ولا يعطي الصفات الشخصية الفردية كالجدارة مثلًا المكانة التي تستحقها. (لعبة المجتمع اللبناني القائمة على الواسطة والمحسوبية والطائفية لا توفر الحقل الأكاديمي، هنا أشعر بالتهميش مثلي مثل الكثيرين من الأكاديميين).

الوضعية السوسيولوجية: تمثلت هذه الوضعية، تارة، ببيئة اجتماعية مهمشة على الصعيد الوطني (الجنوب) أو على الصعيد الاجتماعي (محرومة) أو على الصعيد الأسري (عائلة هامشية على صعيد الحسابات العددية الانتخابية) فيها، فكانت دافعًا لبذل مجهود كبير من أجل توكيد الفردانية وإبرازها. كما تمثلت هذه الوضعية، تارة أخرى، ببيئة ثقافية لغوية (فرنكوفونية) تهمّش الأفراد الخارجين عنها وتوسّع المسافة مع الذاهبين إلى اللغة العربية (هناك مسألة واحدة تطلبت مني أن أصارع كي لا أكون هامشية: المسألة اللغوية. فأبي، وإن كان يعرف الفرنسية، كان معرّبًا بسبب «دستوريته»، وذلك بعكس مدرستي حيث الوسط هو فرنكوفوني)، أو بالعكس قد تعمل هذه الوضعية على أن تهمّش الساعين إلى الانضواء فيها من خلال رفع سقف تطلبها بحيث يصعب بلوغه (....ورغم مكافحتي المريرة للتهميش اللغوي، ورفقتي المستدامة للقواميس. فأنا درست في مدارس رسمية، ولم تشفع لي علاماتي العالية، باللغة الفرنسية).

أيضًا تتمثل هذه الوضعية بوسط اجتماعي ينظر بعين الرفض إلى النساء اللواتي يحققن ذواتهن من خلال الدرس والعلم والعمل، لا من خلال القيام بالواجبات الأسرية أساسًا، فتعمل على إشعارهن بالذنب أو ترسم عنهن صورًا مبخسة (إنها لا تقوم بواجباتها الأسرية، إنها مطلقة تتقاضى نفقة...إلخ)، ناهيك عن الإغفال التام لذلك البعد من هويّة المرأة الباحثة (كوني باحثة ليس بُعدًا من هويتي بالنسبة للناس، سواء أكانوا في محيطي الأسري أو الاجتماعي أو حتى المهني). ومنها أيضًا الأوساط التي تهمّش غير اللبنانيين (من أصول سورية مثلًا). أو

بالعكس فإن ثمة أوساط تعمل على إبراز التهميش باعتباره نوعًا من التميّز (أتمت جدتي تربيتنا بفوقية عملت فيها دائمًا على تمييزنا عن الغير «نحنا غير شكل»).

السلطات الأكاديمية/ المعرفية: أشار العديد من المناقِشات إلى أن الحقل الأكاديمي يمارس تهميشًا لهن من حيث تكريسه آليات بحث ذكورية تضع الفكر النسائي في مرتبة العاجز عن اختراق المعرفة «الصلبة» المعترف بها (ومع تمرسي في مجال البحث والتدريس، بدأتُ أعي أن آليات البحث في كثير من الأحيان هي ذكورية)، أو في عدم الاعتراف بأهمية الذاتي وبعدم الربط ما بين العلم والحياة (الذاتي كان إشكاليًّا، ولم تكن مقاربة الذاتي في مجتمعنا في ذلك الوقت، أمرًا مألوفًا في الكتابة). بالمقابل، يبرز تهميش في منحى معاكس طال اللواتي تدرّبن على مقاربات ومناهج معيّنة في البحث، إذ وجدن أنفسهن خارج التيار حين تطوّرت هذه المقاربات واتّخذت وجهة مغايرة (نشأت توقعات بشأن أن يكون الباحث في مواضيع الصحة العامة...ممارسًا ومرتبطًا بالشأن العام...إنها لغة مختلفة بالنسبة إليّ. وجدت... أنني أصبحت هامشية).

وفي ضروب التهميش أيضًا إهمال المواضيع التي تهم معاش النساء الشخصي، مثل الدراسات المتعلقة بالجسد أو علاقة الرقص بالدراما أو علاقة الممثل بالراقص، علاقة الشخصيات الدرامية بالتفكيك الجسدي(كيف أقدم كل ذلك في غياب المعطيات والمراجع والكتب؟). أو مواضيع البحث النسوية بالرغم من راهنيتها (الدراسات النسائية وميادينها العلمية ليست مدمجة في المناهج أو معترف بها كحقل علمي يسدّ حاجة المجتمع له)؛ وكذلك هي حال الأبحاث في أوضاع المرأة في الخطاب السياسي العام (بقيت أبحاثي وأبحاث غيري من النسويات، خارج الخطاب العام المتداول حول المرأة). كما ذكرت بعض الباحثات نوعًا من التهميش يتعلق بتوجههن نحو قطاعات معيّنة في المهنة ذاتها ليست تلك المتصلة باختصاصات ومهن «نخبوية» من قبيل اختيار العمل مع الناس في مجال الطب الاجتماعي بدل الانحصار في عيادة مما يلقى الاستهجان والرفض (إن مشاركة المرضى في قضاياهم وفي الدفاع عن حقهم بالصحة هي قضية تهمني).

في مواجهة التهميش

في مواجهة التهميش الذي استشعرته الباحثات، نرى فئة منهن قد اختارت الهامشية بسبب رفضهن للتيار الأعمّ، أكان ذلك التيار قابلًا بالطائفية (لا أشعر، مثلًا، أنني مسيحية أو مسلمة أو درزية.. (لذا أنا) مهمّشة لأن هذا موقف الأقلية في لبنان)، أم باتجاهات مهنية سائدة (إذا كان خياري هامشيًّا، فأنا أفتخر به)، أو لأسباب «وجودية» (أنا لا أقبل إلّا أن أكون هامشية في المجتمع اللبناني). أو لاختيار إرادي مقصود لمواقع ظل يجدن أنها تعطيهن مجالًا من التحرك والحرية، (الحرية الواسعة في إشهار اتجاهاتي السياسية

والنسوية)، أو كمثل الانزواء (الكتابة مع ما تقتضيه من تفرغ واحتباس تجعلني... أبدو كالغريبة أو الطارئة أو الهامشية)، والكتابة (من مكافآت هذا التهميش إمكانية الانصراف إلى التأليف والبحث والقراءة).

لكن كان هناك، أحيانًا، مغالبة امتدّت على مسار حيوات بكاملها لمواجهة تهميش فُرض عليهن لأسباب مختلفة. من هذه، مثلًا، التهميش اللغوي الذي اختبرته من نشأت في محيط فرنكوفوني ورغبت بتوكيد حضورها في المحيط العربي اللسان، (كان هناك مسألة واحدة تطلبت مني أن أصارع كي لا أكون هامشية...تهميشي اللغوي) أو على العكس من ذلك، تلك التي برعت دراسيًّا في محيط عربي اللسان لكنه مفتقدٌ إلى شروط التمكّن من لغة أجنبية (....مكافحتي المريرة للتهميش اللغوي، ورفقتي المستدامة للقواميس). أو لدى ضرورة التكيّف مع توجّه بحثي جديد في ميدان ما (صرنا نشعر بضغط أكبر لتبني المفهوم المستجد للباحث في مجالنا).

وفي كلّ الحالات، استدعى الانخراط في المحيط المقابل والرغبة بالحصول على الاعتراف فيه، كأفراد لا كظلّ لآخرين ولا تقليدًا لمناهجهم ولا قبولًا بفرضياته ما استدعى اجتهادًا مضاعفًا و«نضالًا» دؤوبًا. ومن هذه، مثلًا، الجهد المبذول في المجال المهني من أجل إثبات الوجود في التيار الأعمّ (كل ما كتبته كنت أعيد كتابته بالعربية كي لا اتهمّش عربيًّا) لكنه كان أيضًا من بعض مسار الحياة لدى أخريات و«القابِلة» لاكتشاف الذات (فقط تلمّس المنفي من الإدراك، أي المكبوت والمنسي هو ما ساعدني على الخروج من تلك الحالة الهامشية)، أو (الوسط الأكاديمي الذي قام على جدلية المركز والهامش، سرعان ما أشعرني أنني أستعيد ذاتي من خلاله). ومن اختبرَت تهميشًا «قوميًّا» (لكونها من أصول غير لبنانية) أو طبقيًّا متعلّقًا بمكانة دينية عليا تفترض ابتعادًا قسريًّا عن التيار الأعمّ استوجب صوغًا لهوية متميّزة (...التهميش قادني إلى تحدٍّ مع الذات، إلى البحث عن الأنا..إلى تركيب شخصية لي «غير شكل»). وفي مجال البحث تحديدًا، تجلّت مغالبة التهميش بمزيد منه وبخرق السائد؛ وذلك باللجوء إلى خيارات لمناهج بحثية لم تكن دائمًا أرثوذكسية، وأيضًا عبر صوغ فرضيّات مناقضة لما يعتبره البعض مسلّمات يفترضون تواطؤ الآخرين معهم في القبول بصوابها، وفي مقارعة الثوابت ذات الصلة بالمعتقدات حول مواضيع مختلفة لأبحاثهن إلخ.

وتجدر الإشارة إلى الدور الذي لعبه «تجمع الباحثات اللبنانيات» في إطار مغالبة التهميش. فهو كان مجالًا لاختبار كينونة مختلفة (الذات هنا هي امرأة وباحثة. نحن أيضًا داخل تجمع هو تجمع الباحثات اللبنانيات، اللغة هنا ليست محايدة) أو مقاربة جديدة (عندما بدأت الباحثات بشق هذا الطريق الذي يصل الذاتي بالموضوعي، باعتبار أن الاثنين لا ينفصلان عن بعضهما البعض، شكل الأمر بالنسبة إليَّ شخصيًّا، محطة هامة) أو معرفة

جديدة (ومن خلال تجمع الباحثات اللبنانيات هناك الكثير من الأشياء التي اكتشفتها، والأفكار التي ساعدني التجمع في بلورتها كانت هامة جدًّا، واستفدت منها في مجال دراستي وعملي الأكاديمي).

معان وصياغات

قلّما اكتفت المشاركات في هذه الطاولة المستديرة بمصطلحَي التهميش والهامشية لوصف أحوالهن. إذ لجأ أكثرهن إلى مفردات مجاورة للتعبير عن تجلّيات عيشهن. من هذه المفردات نذكر العزلة والغربة والشعور بالإقصاء والاختلاف عن السائد والابتعاد والعيش خارج التيار الأعمّ أو طغيان الأكثرية وتشويش الهوية والتظلّل القسري بسلطة عائلية أو معرفية أو الاثنين معًا.

بعض المشارِكات في هذا النقاش بادرن بتعريف المصطلح قبل الكلام عنه (بالنسبة لي، أنا أفهم الهامشية على أنها حالة الوجود في الظل بغض النظر عما إذا كان الأمر منشودًا أو مفروضًا). لكن المعنى المستخدم كان لدى الأكثرية متضمّنًا في الكلام ويشير إلى نوع من الإزاحة عن الخط المكرَس(كان السائد المفترض أن على الباحث أن يكون مبتعدًا عن الظاهرة المدروسة...كنا مبتعدين عن المجتمع). وقد برز، في هذا السياق، اتجاهات ثلاثة:

الأول التزمَ أفراده بالتعريفات المعتمدة في الميادين المعنية بالهامشية والتهميش الاجتماعيَين (التهميش كما أفهمه هو التهميش عن السياق العام الاجتماعي أو عن الميادين الفاعلة أو المنتجة والفئات المهمشة التقليدية معروفة (سجناء، معوقون، عاطلون عن العمل،..).

الثاني عمل على إعادة تعيين المرجِع الذي يجري تحديد المتن والهامش بإزائه. وقد عبّرت بعض هؤلاء الباحثات عن رفض صفة الثبات لهذا المرجِع، وقمن بتعيين مرجِعٍ خاص ارتأيْنَه أكثر تلاؤمًا في وصف مسار عيشهن واستقرار أحوالهن. (ما عدت أعلّق أهميةً على ما يراه الآخرون، خرجت كليًّا من هذا الحقل وبنيت فضاءً داخليًّا ـ قبل أن يكون خارجيًّا ـ لكي أستطيع أن أنظر إلى نفسي). وبرزت لدى هؤلاء الرغبة في جعل الذات الفردية، والأنثوية أحيانًا، متنًا والمجتمع والثقافة المجتمعية هامشًا! هكذا يبدو التهميش عن الذات «الحقيقية» صنيعة تلك الثقافة ورموزها المستدخلة، لتُمسي مواضيعَ للمواجهة من أجل استعادة تلك الذات وتوسيع دائرة وجودها. (دخلتُ في حالة إحساس بالتهميش عندما رحتُ أبحث عن صور للمرأة (في ذاتي). فقط تلمّس المنفي من الإدراك، أي المكبوت والمنسي، هو ما ساعدني على الخروج من تلك الحالة الهامشية). كما بدا إدراك الذات، عنصرًا حاسمًا في إسباغ معنى على الهامشية (اذا كانت النتائج التي تطلع من شغلي أو من كينونتي كباحثة، أو

في (وجودي في) مجالات أكاديمية/ ثقافية تعطيني اكتفاءً ذاتيًا، فأنا عندها لا أُدرك نفسي كمهمشة، أي لا أكون خارج واقعي).

أما الاتجاه الثالث فبدا غير «مرتاح» لمصطلح التهميش؛ فمن هؤلاء من رأى أنه مفهوم مختلق لا يساعد على التعرف على الذات (مفهوم مختلق من الأساس للهرب من المسؤولية) والبعض الآخر رأى أنه مفهوم مزيّف لأنه صادر عن جهة لا تملك، وفق معايير معيّنة، الأهلية للتصنيف (من يصنف من؟ ومن يهمّش من؟) والبعض رأى أنه مفهوم غير صائب لتمييز الحالة النسائية (ربما يهمشني وسط معين بينما يستقبلني وسط آخر بالحفاوة).وكان من الأجدى اختيار مفاهيم أكثر تعبيرًا مثل مفهوم الغربة أو الاغتراب أو التمييز، مثلًا.

في المحصلة كانت هذه قراءة، من قراءات عدة محتملة، في شهادات حول معيش الهامشية والتهميش لمجموعة من الباحثات والعاملات في التدريس الجامعي والثقافة. هذه الطاولة إذ عُقدت لاستدراج تعبيرات المعيش لدى هذه الفئة النخبوية من النساء حول مفهومَي التهميش والهامشية، فقد فاض الكلام عن ذلك ليظهر إدراكات ومسلّمات واتجاهات ومعاني ومشاعر وانشغالات أخرى؛ هذه جميعها، وفي حين كانت ذات صلة مباشرة بالموضوع بما هو متوافق على راهنيتها في الموضوع في الكلام «الحيادي»، فهي تجاوزت دلالاته وخرقت حدود معانيه المتعارف عليها، في أحيان كثيرة.

❊ ❊ ❊

الجزء الثاني: المداخلات

منى فياض: في ما يتعلق بالبحث كمصدر للتهميش لا أرى أن الباحثة يجب أن تبتعد عن الظاهرة المدروسة أو تنعزل من أجل القيام بالبحث، بل العكس؛ أي إن البحث لا يفترض تهميشًا وبالتالي فالباحثة ليست مهمشة بصفتها باحثة وإنما تهميشها، إذا شعرت بذلك، قد يكون جزءًا من تهميش النساء بشكل عام في بعض الميادين وخاصة في الميدان العام وليس بسبب نمط بحثها بحد ذاته.

التهميش كما أفهمه هو التهميش عن السياق العام الاجتماعي أو عن الميادين الفاعلة أو المنتجة والفئات المهمشة التقليدية معروفة (سجناء، معوقين، عاطلين عن العمل،..) وهي مقصية عن المجتمع أو تعيش على هامشه. وهذا ليس حال الباحثين، بل حال من نطلق عليهم تقليديًّا «الصعاليك». لكن من الأماكن التي يبرز فيها التمييز بين الجنسين وقد تعاني المرأة الباحثة من هذا التمييز، أمكنة العمل أو مواقع القرار؛ مثلًا

أنا في وقت من الأوقات كنت أشعر بالتهميش في الكلية إذ كان هناك تمييز في القسم بين الأساتذة والأستاذات، لجهة الانخراط في دوائر عمل أخرى أو إنتاج معرفي خارج القسم أو نشاطات مهنية هذا جانب، ومن جانب آخر أنا أقر بأن المرأة لكي تثبت نفسها عليها أن تبذل مجهودًا كبيرًا يزيد عمَّا ينبغي على الرجل أن يبذله، ولكن هذا ليس تهميشًا له اسم آخر: التمييز وعدم ثقة كافية بقدراتها.

لكن إذا كان هناك شعور بالهامشية فهذا قد يخضع لنمط شخصيتنا وللدوائر التي نحب أو نرغب في الانخراط فيها. أنا ربما لدي مزاج معين قد يبعدني عن نشاطات معينة، بسبب عدم شعور بالراحة في وسط جماعة كبيرة. الكاتب عامة يبحث عن نوع من العزلة وإلَّا فكيف يمكن أن يكتب؟ وهذا ما قصدته بالمزاج الذي يبعدنا أحيانًا بإرادتنا. ولكن هذا لا يعني أني هامشية بل أنا أرى أني جزء من هذا المجتمع، فحينما أكتب وأُقرأ بنسبة لا بأس بها، وعندما نساهم عبر الكتابة بتكوين رأي عام معين لا يكون في الأمر تهميشًا.

وأشعر بأن التهميش لا علاقة له بمهنتي، بل ربما يهمشني وسط معين بينما يستقبلني وسط آخر بالحفاوة. وهنا أيضًا لا يكون في الأمر تهميش بل اختلاف وتعارض وأوساط ننتمي إليها وأخرى نبتعد عنها. ثمة فارق بين أن أكون مهمشة في مجتمع، في وقت معين، وبين أن أكون هامشية. قد يكون هناك مجموعة من الأشخاص أحب أن أنضم إليهم ولكنهم لا يقبلون بعضويتي، هذا نوع من التهميش في هذه الدائرة فقط، إذ يصعب أو من المستحيل الانخراط في جميع الدوائر.

مي جبران: بالنسبة للتهميش في المجتمع اللبناني، كل عمري أحسست بنفسي مهمشة. ربّما هذا جزء من رؤيتي لذاتي داخل المجتمع، لأني أحس أن اهتماماتي أو إنتاجي أو شغلي هو لا يعني مباشرة المجتمع اللبناني، ربّما لأني أحس بنفسي أني امرأة/أنثى كطير أغرد خارج سربي. منذ أن بدأت أعمل في الجامعة، أشعر أن هناك تهميشًا لما أقوم به ولما أفكر وأكتب. لذا أتساءل: هل أنا أحبّ أن أكون هامشية؟ هل تسعدني هامشيتي؟ أعتقد أن هذا صحيح. لأن كل شخص يشعر بالهامشية تكمن رغبة وراء شعوره ذاك، رغبة غير واعية. في كل مجتمع هناك مهمشون، وأنا ربما أريد / رغبتي أن أكون مغايرة، وأن أفكر بطريقة مختلفة، وهذا يسعدني، فأنا أريد أن أكون مغايرة كي أكون بارزة. أنا لا أقبل إلَّا أن أكون مهمّشة / هامشية في المجتمع اللبناني.

هناك جانب آخر، سلبي ويتعلق بموضوع الأبحاث. ما هو هدف البحث الذي أقوم به؟ إنه المساهمة إلى حد ما ولو بقدر ضئيل في إحداث تغيير داخل المجتمع. ولكن يتبين أنه في داخل مجتمعنا اللبناني، كل الباحثين، رجالًا ونساءً، هم مهمشون. فلا قيمة للدراسات والأبحاث إذا لم تؤخذ نتائجها بعين الاعتبار. نحن نتوصل إلى

نتائج، فلماذا لا يؤخذ بها؟ إلى أي مدى يستفيدون منها؟ غدًا سوف يرمونها في الزبالة ونتائجنا لا تساهم في استراتيجيات الدولة، خطط التربية، في تطوير الجامعة اللبنانية مثلاً، فإلى أي حد هي مثمرة؟ إنها لا تساهم في أي تغيير أو تحسين أو تطوير.

جنى الحسن: أنا أولًا سأتكلم عن الإدراك. الإدراك سيف ذو حدين، إنه استراتيجية داخلية. فإذا كانت النتائج المتعلقة بشغلي أو بكينونتي كباحثة، أو بمجالات أكاديمية/ ثقافية تعطيني اكتفاءً ذاتيًّا فأنا عندها لا أدرك نفسي كمهمشة. أما التصنيف فهو موضوع آخر. إن العمل البحثي يعتبر في مجال عملي كفنانة شيئًا هامشيًّا، وعندما أعطيه وقتًا واهتمامًا فإنه يمكن أن يأخذني في مسار تهميش لكونه يبعدني عن العمل الحقلي المباشر. إذن إن تصنيف التهميش يختلف من موقع إلى آخر في أي مجتمع. ومن خلال عملي في «تجمع الباحثات اللبنانيات» اكتشفت أن العمل البحثي ليس هامشيًّا، هنالك الكثير من الأشياء التي اكتشفتها، والأفكار الهامة التي ساعدني التجمع في بلورتها واستفدت منها في مجال دراستي وعملي الأكاديمي. علاقة الرقص بالدراما أو علاقة الممثل بالراقص، علاقة الشخصيات الدرامية بالتفكيك الجسدي. كيف أقدم كل ذلك في غياب المعطيات والمراجع والدراسات. لقد اضطررت للقيام بتركيب كل ذلك بنفسي، وكان الموقع الذي عملت ضمنه هامًّا وكان نتاجًا شخصيًّا فريدًا.

كيف يتم تصنيف موقعي كفنانة في المجتمع؟ أن أستطيع أن أنتج مالًا؟ أو أن يحضر الجمهور مسرحي؟ هذا أمر لا شأن له بالتصنيف. ولكن فعليًّا أين يكمن اهتمام الفنان؟ كيف يعبر عنه؟ حين يصنف أحد ما أحدًا آخر، لا يهمني تصنيفه إذا كنت لا أحترمه. تحديد الذات هو قوة/ اختيار/ قناعة ذاتية.

في عملنا في مجال الفن، يمكن أن تلعب المرحلة الزمنية التي يتم فيها العمل نوعًا من التهميش. مع جانين ربيز مثلًا كان هناك وضع أو وعاء ثقافي جعلها تبرز ولكن جانين ربيز تحولت في ما بعد إلى مهمشة. حتى مهرجان البستان هو الآن أيضًا مهمش بشكل أو بآخر. بالمقابل إن الاعمال التي تستمر فترة طويلة لا تعتبر مهمشة. العرض الذي يستمر لمدة سنتين لا يعود صاحبه مهمشًا.

من يقوم بالتصنيف مهمّش/ غير مهمّش؟ كل مرحلة لها تهميشاتها. هل إن القائمين بمهرجان البستان مهمّشون؟ هل كانت جانين ربيز (مديرة دار الفن والأدب الراحلة) مهمّشة؟ هل العرض السخيف الذي يبقى لمدة سنتين ليس مهمشًا؟ ما هو المعيار؟

لقد عشت الكثير من التجارب والكثير من الشغف passion في عملي. كل ما له علاقة بالتجارب الذاتية والفردية التي خضتها كانت لها علاقة بالأرض والتربة والمواقف السياسية، كل هذا عشته لا بل التهمته. لم أجد وقتًا لكتابة هذه التجربة، بينما المرحلة التي

مررت بها كانت تحفل بتجارب مهنية ضخمة بين لبنان وباريس ومصر ونيويورك ومناطق أخرى في أميركا وأوروبا. أريد أن أقول إن هذه الصور موجودة في الذاكرة ولم تذهب، حتى وإن كانت التجربة غير مدونة. وهذا الغنى الذاتي، يجعلني أكون غير مهمشة أبدًا. عندما أريد أستطيع أن أستعمله، الشهادة temoignage موجودة داخلي. إنه أنا. وبما أني موجودة فهو أيضًا موجود. أنا لست عاملة في الثقافة. أنا حاملة للثقافة. هناك أفراد غير مثقفين، ولكنهم هم حاملو الثقافة، هم الذين عاشوا تجارب، وصارت إنسانيتهم راقية إلى درجة أهم من الثقافة. علينا أن ننتبه إلى التعريفات المأخوذة كمسلمات. علينا إعادة تقييم كل المفاهيم، ليس فقط التهميش وإنما كل مسألة التصنيف. تصنيف من؟

في المحصلة، إذا كان هذا الغنى، وهذه الثقافة، وهذه التجارب التي حملها الشخص كل حياته أدّت به إلى أن يكتسب علاقة إنسانية غنية مع شخص واحد أو اثنين فأنا أقول إن هذه التجربة ليست مهمشة أبدًا.

منى حيدر: أنا حين فكرت في مصطلح التهميش لغويًّا، كان التهميش في رأسي أمرًا سلبيًّا، فيه فعل إقصاء وإكراه ولكني انتبهت إلى أن الهامشية غير التهميش. والتهميش قد يكون أمرًا إيجابيًّا حين يكون صادرًا عن قرار. الأغلبية لا تعبر عني، والتيار السائد لا يمثلني. أنا فخورة بكوني هامشية.

برأسنا... هل الباحثة أو الأكاديمية مهمشة؟ هذا له علاقة بأن بالبحث بذاته مهمش في العالم العربي. ليس هناك ثقافة البحث. يحس المرء بذلك من نشرات الأخبار، وفي الأحاديث اليومية، وفي التدريس الجامعي. البحث ليس لغة أو أسلوبًا يتبناه جزء من المجتمع فقط، الباحثات أو الأكاديميات مثلًا، وإننا نعيش في برج عاجي- وهو ما أسمعه أحيانًا. المطلوب إعادة نظر بدور الباحثين وحجم مساهمتهم في المجتمع. في ما يتعلق بمجال الصحة، هناك توجهات حاليًّا لربط في كليات الصحة ما بين البحث والعمل والسياسات والبرامج. أما نظرية البرج العاجي للباحثين فصارت قديمة، وجرى اليوم تغييرها. رغم ذلك حين ينهي الباحث بحثه يظن أنه أنهى مهمته؛ وهو أمر، له علاقة بالسياسات الأكاديمية للمؤسسات التي يعمل في إطارها حيث الترقي يقوم على عدد الأبحاث أما ماذا أدّى إليه هذا البحث/ آثاره فلا يعطونه أهمية.

إن الكلام على الفن الذي ورد على لسان جنى جعلني أتعاطف مع الموضوع. فأنا في خياراتي في مهنة الطب، أخذت طريقًا عكس التيار. في بعض المواقع كنت أشعر بنفسي غريبة عن الجو العام خاصة في مهنة الطب. عندما أخذت موضوع «الطب الاجتماعي» كان ذلك لشعوري بأن الجسم الطبي لا يعبر عن قناعاتي لدور الطبيب في المجتمع. أحسست أن هناك شيئًا آخر يمكن أن يجيب عن الأسئلة التي تدور حول كيف يمكن للطب أن يفعّل المجتمع، ودوره له علاقة بالصحة العامة. كان أسهل عليّ أن أكمل

دراستي في أميركا بالشكل المعتاد، وأن أفتح عيادة. ولكن خياري كان مختلفًا، ولكن عن قناعة. فإذا كان خياري هامشيًّا، فأنا أفتخر به. المال، البرستيج، ليسا من الأمور التي تهمني. وأنا بهذا المعنى أرضى بالتهميش. في النهاية الهامشي أو التهميش هو أمر نسبي. في النهاية من يهمّش من؟ وبالنسبة لي كطبيبة المهمشون هم قضيتي وأنا أسعى للدفاع عن حقوقهم في الصحة والبحث هو وسيلة للتعبير وللعمل في قضايا معينة تعنيني. إن مشاركة المرضى في قضاياهم وفي الدفاع عن حقهم بالصحة هي قضية تهمني، وإذا كان الثمن الذي أدفعه هو أن أكون هامشية في المجال الطبي فأنا أقبل بذلك.

نهى بيومي: سأبدأ من نقطة، ثم أعود إلى تجربتي الحياتية ولن أقف فقط عند تجربة البحث. سأنطلق من تجربتي في تجمع الباحثات اللبنانيات. سأتكلم عن إحساس عميق ظل لفترة يراودني. كنت أحاول في كتاباتي قبل أن أنضم إلى تجمع الباحثات أن أعبر عن نفسي، ولكن هذا الأمر لم يكن مرغوبًا. لا أنسى مرة أني كتبت مقالة في إحدى الصحف اللبنانية عن الحرب والآثار التي تتركها علينا كنساء والتعثر الذي تسببه لنا في حياتنا اليومية، فيتصل بي أحد الصحافيين هناك ويسألني إن كنت أعاني من مسألة خاصة تتصل بزواجي! فالذاتي كان إشكاليًّا، ولم تكن مقاربة الذاتي في مجتمعنا في ذلك الوقت، أمرًا مألوفًا في الكتابة. وعندما بدأت الباحثات بشق هذا الطريق الذي يصل الذاتي بالموضوعي، باعتبار أن الاثنين لا ينفصلان عن بعضهما البعض، شكل الأمر بالنسبة لي شخصيًّا، محطة هامة. صار بإمكاني أن أضع حالي داخل الظاهرة المدروسة عكس ما كان الأمر عليه في السابق، مع أن المجتمع العلمي لم يكن متقبلًا لأن أكون جزءًا مما أدرس من ظواهر.

المفصل الثاني في حديثي جرى في مرحلة أسبق، ذلك عندما كنت أحضر الدكتوراه في باريس حيث اخترت موضوعًا هامشيًّا بالنسبة إلى ما يجري في لبنان هو السوريالية. ذهبت إلى عالم هامشي ووجدت نفسي داخله. في تلك المرحلة حين كنت أبني ذاتي، كنت أعيش تصادمًا داخليًّا بين صور عن حالي أخذتها عن المجتمع وعالقة في ذاكرتي. لأني أرى أن الانسان يستطيع أن يرى نفسه من خلال أمرين: إما الذاكرة التي هي برنامج منزّل في خلاياه يأتي من المجتمع الذي يعيش فيه، ويرثها من سلالته، أو من خلال اللحظة الراهنة وكيف يرى نفسه فيها.

دخلت في حالة صراع إذ وجدت نفسي في صور ليست من صنعي ولا تمثل الحاضر الذي أنا فيه. أمامي كان هناك رجال، وعلى رأسهم زوجي، متفرغون للمهنة وللبحث والأسفار واختباراتها، بينما أنا كنت مربوطة في أدواري الاجتماعية كامرأة. في البداية كان هذا الشيء يشدني إلى الصور التي يريدها المجتمع، وأما الصور الطالعة مني فتشدني في مكان مقابل. هنا كنت أشعر بالتهميش قليلًا، لأني لم أكن متفرغة

بالقدر الذي أريد لاهتماماتي العلمية. كنت أعتبر الأمر نوعًا من الخذلان وأن الشخص الذي يريد شيئًا يستطيع تحقيقه، ولكن بأي ثمن؟.

في مرحلة تالية تخلصت من هذه الصور ومن الصراع، وصرت أهتم بحالي، بما أريده. ما عدت مهتمة بفكرة أن أكون أو لا أكون على الهامش. ففي السابق كان سؤالي الدائم لماذا أنا مهمشة ولماذا لا أكون في قلب الحدث؟ ثم انتبهت إلى أن الأمر برمته خاطىء. المطلوب هو أن أكون «مرتاحة في جلدي» وإذا لم أكن كذلك، فليس لأي أمر أهمية. العلم إذا انفصل عن حالي، يصبح شيئًا لا قيمة له. من هنا كنت أتساءل دائمًا عن مدى فائدة العلم في بلادي إذا لم يكن لتثقيف النفس وتحفيز الوعي وتهذيب الأفكار والمعتقدات! والآن ما أحاول عمله في عملي هو أن أربط العلم أي ما أدرّسه أو أدرسه، بالحياة. وربما لهذا مجتمعاتنا لا تتطور لأن العلم فيها منفصل عن الحياة.

ما عدت أعلق أهمية على ما يراه الآخرون، خرجت كليًّا من هذا الحقل وبنيت فضاءً داخليًّا- قبل أن يكون خارجيًّا- لكي أستطيع أن أنظر إلى نفسي، إذ كيف سأصل إلى التعرّف إلى نفسي حين أكون غاطسة في الحقل الخارجي الذي يشوّش رؤيتي لذاتي! هذا ليس بالطبع تهميشًا، بل خيار، خيار لصالحي وهو، بتصوري، أكثر فائدة لي وللأشخاص الذين يعيشون معي وأتعاطى معهم. لم أعد أقيم حدودًا، بين أن أكون مثقفة وأستاذة في الجامعة وأم وزوجة وصديقة. الكل صار واحدًا في اللحظة التي أدركت فيها أنني أوقفت البرمجة التي كانت تقيدني، ذلك البرنامج الذي كان منزّلًا فيّ. عندما وعيت ذلك وأوقفته، نظفت نفسي من كل القناعات الجاهزة واشتغلت على اقتناعاتي وما أومن به. صار الآن لديّ حرية وصرت موجودة في مكان اخترته خارج الأحكام ودون تقييم.

التهميش مفهوم ابتكرته كامراة كي أتجاوز مسؤوليتي حيال تكوين ذاتي وترتيب منزلها، وحين حلّ الوعي بذاتي صرت «أنا» أي غير مهمشة.

أنيسة الأمين مرعي: أتوقف أمام مفردة «الذات»، الباحثة هنا هي امرأة. والذات هنا هي ذات امرأة.

في الأبجدية التي نتعاطى معها. الذات هنا هي امرأة وباحثة.. الذات في التحليل النفسي هي منقسمة بين وعي ولاوعي.. الذات ليست الفرد individu وإنما هي ..Sujet هنالك قسم فالت منها يقع في دائرة المكبوت أو اللاوعي وهناك الإدراك الواعي. وما نسميه دراسات عن المرأة فيما يتعلق بالنوع والجندر أفهمه جدًّا من ناحية نضالية وأقدره، ولكن ذات المرأة، كونها منقسمة تفلت من هذا الحقل البحثي.

في اللغة العربية، جمع امرأة هو نساء. وكما قال لاكان la femme n'existe pas

المرأة مع أل التعريف هي غير موجودة. هناك امرأة وليس المرأة بالمطلق. بمعنى أن كل امرأة هي كيان خاص. إذا عدنا إلى الثقافة العربية الإسلامية التي ما زالت تضرب بجذورها، إذا قلنا امرأة تحضر الأخت/ الزوجة/ الأم/ الخليلة/ العاهرة...إلخ. في الاستماع التحليلي في عيادتي لأية امرأة، أجد أنها تتكلم كأخت كزوجة كبنت أو كأم، ولا تجد نفسها إلَّا إذا مرت بكل هذه المواقع.

في تجربتي الشخصية أنا المرأة التي لم تكن تشكو من تهميش أسري ولا اجتماعي ولا مهني، دخلت في حالة إحساس بالتهميش عندما رحت أبحث عن صور للمرأة. فقط تلمس المنفي من الإدراك، أي المكبوت والمنسي هو ما ساعدني على الخروج من تلك الحالة الهامشية:

ماذا وجدت في بحثي الطويل؟

1 ـ اللقاء الأول كان في الكشف عن امرأة في ذاتي، فاجأتني وأذهلني وجودها في: السيدة زينب، امرأة كربلاء، التي حملت ما تبقى من أسرة الحسين (السبايا والأطفال)، تماسكت أمام الظلم وجابهت يزيد وأهل الشام، دافعت عن حق أهلها. زينب، ذات المنبت النبيل (ابنة فاطمة وعلي بن أبي طالب) نستطيع إعطاءها صفة أنتيغون. هي متزوجة وأم، ولكنها في المتخيل العام هي الأخت. هذه الأنتيغون وجدتها، عياديًّا، لدى سيدات من جميع الطوائف اللبنانية. أظن أن وضعية الحرب والتهديد الدائم وقسرية التماسك الأسري والخوف على اسم الأب جعل من الأخت طاقة فاعلة في حماية الأسرة. التهميش هنا يطال وضعها كزوجة، حاملة لاسم آخر وكأم لأولادها.

2 ـ اللقاء الثاني كان مع هاجر (جدة المسلمين/ جدتنا)، كان لقاء بحثيًّا ونظريًّا، نشأ من سماعي لجملة قالتها عزة شرارة في بحث لها عن مواقف الشباب من الإناث/ في محاضرة لها في الجامعة اللبنانية/ «هجرة المؤنث». هجرة وهاجر إلخ. أخذ هذا الأمر وقتًا طويلًا مني كي أفهمه. وعبر متابعة دقيقة لهذا الموضوع، حيث وجدت الجواب، عند فتحي بن سلامة في كتابه «الإسلام والتحليل النفسي» (دار الساقي 2000). هاجر، هي المنفية من المتخيل الإسلامي العربي العام، بصفتها أم التأسيس. هي عارفة ولكنها منفية من الذكر والتسمية.

3 ـ اللقاء الثالث كان مع مريم العذراء. كان لقاء جميلًا جدًّا، أنتظرها كل ميلاد وأعرف أنها تقدم الهدايا لابني. أنا المرأة/ الأم، التي ظنت أنها زينب أو هاجر، ترى اليوم كم كانت أم زوجها المعمد مسيحيًّا حتى عمر العشرين! أمه اسمها مريم أمين. أية مصادفة هذه! مريم وأمين. مريم العذراء هي الوحيدة التي يعترف بأمومتها، في القرآن

وفي عيد البشارة. وكل هذا التكريم ! صرت أمًّا معها فقط، بعد أن كنت في غربة قاتلة مع أمومتي.

4 ـ اللقاء الأخير هو اللقاء مع أنيسة التي تحاول اليوم ابتداع وجودها من خارج هذه الصور/الرموز. ابنة هذه الثقافة وحاملة دلالاتها التي ارتسمت كيانات في روحي وجسدي، أدركها وأعيها بعد أن فكفكت مفاتيحها، لم يعد يعنيني تهميشها لي كامرأة من هنا. وجدت أنيسة. مهمشة أو لا، سؤال لم يعد يهمني الآن الإجابة عليه. «النأي بالذات» لم يكن خياري والبحث العميق كان دربي حيث «الانخراط» في كل عثراته، كان دربًا لمواجهة تهميشي ككيان أنثوي.

هدى زريق: من الصعب أن أتكلّم بعد أنيسة وبعد نهى. أنا تجربتي تشبه أكثر تجربة منى حيدر مع فارق الجيل. عندما ابتدأنا في العمل البحثي كان السائد المفترض أن على الباحث أن يكون مبتعدًا عن الظاهرة المدروسة لأن هذا يعني مزيدًا من العلمية والموضوعية. كنا قد تربينا على هذه الفكرة وكنا مبتعدين عن المجتمع ومرتاحين بهذه التجربة. ثم مع الوقت، تغيرت النظرة، وانقلب مفهوم أن يكون الواحد منا باحثًا، خصوصًا في حقل الصحة العامة. ونشأت توقعات بشأن الباحث، صار عليه أن يكون ممارسًا في مواضيع الصحة العامة ومرتبطًا بالشأن العام، ويجب أن يفكر بنتيجة بحثه، ولا يكون باحثاً جديًّا إذا لم يعمل هكذا. وبالتالي صرنا نشعر بضغط أكبر لتبني المفهوم المستجد للباحث في مجالنا. من هذه الناحية بدأت أشعر بأني هامشية، متعودة على دور الباحثة في المكتبة وعلى عدم الاختلاط بالمجتمع، معتادة على العزلة البحثية، ثم شعرت فجأة أنه علينا أن ندخل في (community الوسط المحلي) للبحث بشأنها وعلينا أن نفهم حاجاتها ومتطلباتها. إنها لغة مختلفة بالنسبة إلي. وجدت نفسي أني أصبحت هامشية بسبب طريقتي، وحاولت أن أغير من نفسي وأن أصبح أكثر ارتباطًا، ولكني عندما أقارن نفسي بالجيل الجديد، أجد أنهم انخرطوا أكثر في ممارسة الصحة العامة وفي advocacy. لدينا الآن فكرة قوية حول تغيير المجتمع، والعمل في اتجاه تغيير المجتمع، لا يكفي أن يأتي البحث بشيء جديد، وإنما يجب أن يسعى إلى حل إحدى المشكلات، ومن هذه الناحية ما زلت إلى اليوم هامشية. ومن جانب آخر أنا هامشية من حيث إني لست طبيبة وأعمل في مجال الصحة، لأن المجتمع ينظر إلى العاملين في الصحة على أنهم أطباء، الطب والصحة أمر واحد، ومن يأتي من خلفية ليست طبية يشعر بنفسه أنه ليس في قلب الصحة، وعلى الرغم من توسّع تعريف الصحة إلا أن الشخص يستمر في شعوره بالتهميش وبأن النظرة إليه تبقى تهميشية. وليس الأمر متعلق فقط بالمجتمع اللبناني وإنما يوجد أيضًا في الخارج.

هذا باختصار شديد ما أفكر به في موضوع الهامشية والتهميش، يبقى أن أضيف من جهة أخرى، أني كشخص انطبعت بمهنتي. مهنتي كانت كثير هامّة ونسيت نفسي في مهنتي، الآن بدأت أستعيدها وأحاول أن أسائل نفسي ولو متأخرة ربما.

فاديا حطيط: بالنسبة إلي أنا أفهم الهامشية على أنها حالة الوجود في الظل بغض النظر عما إذا كان الأمر منشودًا او مفروضًا. وانطلاقًا من فهمي هذا فأنا أنظر إلى تجربتي كباحثة وكأستاذة جامعية على أنها مسار مناقض للهامشية لأنه بطبيعته تحت بؤرة الضوء. فأنا أبحث وأنشر لجمهور من اختصاصيين وطلاب وعامة، ومن جهة ثانية أنا أعلّم مجموعة كبيرة ومتجددة دومًا من الطلاب وأكون على مدى وقت طويل مركز اهتمامهم وتماهيهم. إذن بهذا المعنى أنا لا أشعر بأن فكرة الهامشية أو التهميش تطالني فعليًّا من هذا الجانب. وقد يكون الحقل الذي أعمل عليه وفيه هو سبب إضافي لشعوري ذاك. فالحقل التربوي على وجه الإجمال يتطلب بشكل دائم تقديم أفكار وحلول، والتربويون هم عمومًا أناس يعملون ضمن سياق مضبوط، ويتصف خطابهم بالمحافظة – لكون هدفهم المباشر بنو البشر أكثر من الأفكار نفسها– وبالتالي لا يثير أي تحفظ لا من قبل المحافظين ولا من قبل التغييريين. لا بل بالعكس فإن هذا الخطاب كثيرًا ما تلقى عليه مهمات التقدم الاجتماعي برمته، انطلاقًا من مسلمة شائعة تفيد بأن وجود نظام تربوي هو شرط أساسي لتقدم المجتمع. إذن إنه خطاب مرحّب به ولا يحتاج العامل فيه لصبر طويل حتى يجد صدى لما يقوله، فإن لم تتحول أقواله إلى سياسة تربوية، أو خطة تدريبية، فهي ولا شك سوف تشكل خلفية معرفية مفيدة للطلاب والزملاء، إذن إن الحقل بذاته يتضمن قدرة على الإضاءة، تزيدها توهجًا الحاجة الدائمة لإنتاج فكري تربوي محلي.

ولكن ينبغي القول بأن منظور الهامشية هو شخصي ونسبي. فإن كنت أرى إلى نفسي صاحبة مهنة فإن العمل الجامعي يتيح لي، بما يتسم به من ضوابط مهنية، موقعًا متلائمًا إلى حدّ ما مع إمكانياتي. أما إذا نظرت إلى نفسي باعتباري فاعلة اجتماعية بالمعنى الواسع للكلمة، فهنا يمكن التكلم عن التعرض لقدر من التهميش أعتقد أنه قدر كل الفاعلين الاجتماعيين في لحظة معينة من مسارهم بالنظر إلى عوامل مختلفة منها السن ومنها الجنس والخبرة ومنها الصفات الشخصية ومنها الوضع الاجتماعي نفسه. إن الجامعة جزء من المجتمع، والارتباط ليس آليًّا ما بين الجدارة والمكانة، ولعبة المجتمع اللبناني القائمة على الواسطة والمحسوبية والطائفية لا توفر الحقل الأكاديمي، هنا أشعر مثلي مثل الكثيرين من الأكاديميين بالتهميش لكوننا لم نستطع سوى البقاء خارج هذه اللعبة .

ولا يسعني إلا أن أشير إلى نوع من الهامشية التي يفرضها علي عملي وهي

الانغماس في الكتابة مع ما تقتضيه من تفرغ واحتباس تجعلني حكمًا أبتعد عن أوساط مشافهة، مثل وسط الجيرة والأقارب، وتضع مسافة بيني وبينهم فأبدو كالغريبة أو الطارئة أو الهامشية...ولكنها هامشية ممتعة إلى درجة أشعر بأنها السبب في اختياري هذه المهنة أصلًا.

من الناحية الشخصية أستطيع أن أتكلم عن نوع من التهميش تعرفت عليه بسبب كوني بدأت العمل في المجال نفسه الذي يعمل فيه زوجي، وهو ذو مكانة مرموقة في الوسط العلمي بينما أنا كنت مبتدئة في المجال، فكان عليَّ أن أعيش في الظل لفترة طويلة، وكثيرًا ما استقبلت مواقفي وكلامي باعتبارها صدى لمواقفه (وقد يكون الأمر ليس كله اختلاقًا) وفي الواقع كان الأمر متعبًا لي لكي يتم الاعتراف بي شخصيًّا، ومن الأدوات التي استعملتها كان عدم استعمال كنية زوجي.

نازك سابا يارد: أنا مهمّشة في الوسط الذي كنت أعيش فيه. في سني، كنت المرأة الوحيدة العاملة (خارج المنزل) في وسطي وأشعر أن كلام الناس في هذا الوسط يتضمّن لوْمي لكوني مُهمِلة في واجباتي تجاه أولادي. وهو ما جعلني، ربما، أبذل جهدًا أكبر في الاهتمام بأولادي. لكن ذلك أدّى، أيضًا، إلى لوْمي لكوني أهتم بهم بشكل زائد عن اللزوم، وأن ذلك الاهتمام سيكون عبثًا لأنهم لن يهتموا بي مستقبلًا.

واجباتي هذه لم تثنني عن الاهتمام بعملي/بالتدريس وبالكتابة. ولكن ربما جعلتني مهمّشة اجتماعيًّا. وذلك بسبب عمل زوجي (كان مهندسًا ويملك مكتبًا عديد الموظفين وله علاقات مهنية واسعة) كان هذا يتطلب مني علاقات اجتماعية واسعة وما يستتبع ذلك من واجبات اجتماعية كإقامة ولائم وغير ذلك، و«ردّ» ولائم. كنت أشارك في هذه الواجبات دون اقتناع كبير وليس بالوتيرة المطلوبة بالنسبة لما تفعله غيري من النساء. وما ساعدني أن صدر زوجي كان رحبًا فلم يشعرني بالتقصير؛ ففي الفترة التي كنت أعدّ فيها لشهادة الدكتوراه، مثلًا، والتي استغرقت سبع سنوات، لم أقم وليمة واحدة. لم يلمني زوجي ولم يسمعني كلمة واحدة تدل على تبرّمه بالوضع، بل بالعكس من ذلك تمامًا، كان يحثني على إنهاء ما بدأته كلَّما تذمرت من الوقت الذي يستغرقه الإعداد لهذه الشهادة. لقد دعمني وأنا أعترف بفضله الكبير عليّ.

ولديّ إحساس بالتهميش من نوع آخر. في البلدة التي أعيش فيها لا يتكلّم من حولي إلَّا الفرنسية. (أذكر أن أحد الأشخاص من محيطي في البلدة تساءل في إحدى المرّات: لماذا تتكلّمين بهذه الطريقة؟ فقلت له ماذا تقصد؟ قال: «بالعربي!» وفهمت أنه يعني بلغة عربية صافية لا تدخلها كلمات فرنسية أو إنكليزية. قلت له «هذه لغتي وثقافتي وحضارتي ومهنتي!»). بسبب ذلك لا يقرأ جيراني الجريدة التي أقرأها، لا يقرؤون ما أكتب ولا يهتمون. وكأنني أعيش في صومعة أشعر أنني مهمشة فكريًّا وحضاريًّا ولغويًّا.

أما مكافآت هذا التهميش فإمكانية الانصراف إلى التأليف والبحث والقراءة. لكنني أستوحش أحيانًا لكنّ وللباحثات ولخروجكن معًا إذ لا يسعني مشاركتكن في ذلك. أشعر أحيانًا بالعزلة. لكنني لا أنكر أن لعيشي في بلدة برمانا حسناته: الهدوء والهواء النظيف. إضافة إلى أن جيراني في الواقع أناس طيبون ولطيفون، وإن كانوا لا يشاطرونني لغتي واهتماماتي.

حُسن عبّود: شعرت باختياري متابعة التعليم الجامعي العالي وأنا متزوجة وأم لأطفال ثلاثة أني أحلّق خارج السرب. فلا المعرفة ومتابعتها باستمرار هي بالأمر المرغوب به وليست هي المبتغى إن في الإطار العائلي أو التوقّعات الاجتماعيّة. فالنمط السائد عند الأهل والمجتمع أن المتزوجة لا تتابع التعليم ولا تشغل نفسها بالكتابة. لذلك طالما شعرت بغرابة الصورة التي تقرأ عني. فأنا إما مطلقة أنتظر النفقة الشهرية ليصرف مطلقي على الأولاد، أو أنا أدرس لأن عندي ملل من القعود في البيت، أو كسل ذهني من قلّة الاجتماعيّات... لذلك طالما شعرت بالتهميش كإنسانة موجودة تتابع أمور المعرفة والتحصيل العلمي. وهذا يعكس صورة مقيتة عن مجتمعنا، علمًا أن هذا المجتمع الناطق باللغة العربية أصبح غير قارئ وليس من الممكن أن يقرأني جيّدًا، وطالمًا قرأت جهلهم في عيونهم الفارغة ومشيتهم الثقيلة واضطراباتهم النفسية. ومع هذا كنت أجد نفسي، كمشاركة في بعض الترميمات البيئية وكساعية لتغيير واقع مجزّأ وكناشطة على بعض المستويات الأكاديمية والثقافية، أني مهمشة.

كما شعرت بالتهميش عندما بدأت أبحث عن موقع للتدريس إما في المعاهد الدينية الإسلامية والمسيحية أم في كليات العلوم الإنسانية في الجامعات الخاصة. حيث إن الميدان الذي تدربت عليه بين الدراسات الإسلامية (مع التركيز على الدراسات القرآنية) والكتابات النسائيّة العربية (مع التركيز على الأدب النسوي المعاصر)، وتراكمت لدي عنه معرفة، هو ميدان جديد. فلا المعاهد الدينية ترحّب به لأن الصورة المعتادة عن المرأة المسلمة مثلًا أنها لم تخرق أسوار المعرفة الدينية. والكليّات الجامعيّة قاصرة في نظرها على إدماج الدراسات الإسلامية بمناهج أكاديمية حديثة في برامجها، رغم حاجتنا إليها لفكر عربي حديث. وهي لا تربط بين الدراسات القرآنية مثلًا والأدب العربي الكلاسيكي ولا تدرس أثر القرآن الكريم على الأدب والثقافة العربية، وليس لديها فريق عمل بحثي في مقارنة النصوص القرآنية والبيبلية. وهذه كلّها تدرّس في دوائر الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الأوروبية والأميريكية وبل هناك أكبر مشروع بحوث لدراسة القرآن الكريم في ألمانيا (مركز بوتسدام).

لذلك يغيب عن المعاهد الدينية وكليات العلوم الإنسانية ما تحتاجه مجتمعاتنا المقبلة على مستقبل محافظ ذي وجه سلفي، الدراسات الأكاديمية أو الأنثروبوليجية أو

الأدبية المقارنة للأديان. وثانيًا لا يفترض بإمرأة أن تخرق أسوار المعرفة الدينية ومؤسساتها التي تشبه الآثار الباقية. أما الأدب العربي النسوية، فالدراسات النسائية وميادينها العلمية ليست مدمجة في المناهج أو معترف بها كحقل علمي يسدّ حاجة المجتمع له في الصحّة والتنمية والقانون والتربية وآخرها الآداب المقارنة.

ثمة ناحية إيجابية تزيح هذا الشعور بالتهميش لديّ تتمثل في أن حياة الكاتبة والباحثة تجعل منها طالبة علم باستمرار مما يعطيها براءة تشبه براءة الأطفال وبراءة البحث عن البدايات. حيث علينا أن نتصنّع ضرورةً الجهل دائمًا، حتى لا نحمل معنا حقيبة من الأفكار والآراء المسبقة عن كل موضوع جديد نسبر أغواره. فالباحثة تزيح عنها باستمرار الموروثات والآراء غير ـ العلمية والمعارف البعيدة عن الواقع والحياة... مما يدخل حيوية معينة إلى روح الكاتبة الباحثة تجعل منها باستمرار جميلة الوجه ورفيقة لأولادها وللصحبة الممتعة وصاحبة معرفة تُقصد لطروحاتها وصواب تحليلها وخيالها الخصب. ومن هنا يصبح التهميش، من ذلك الجانب الذي لم يحتمل أن يتخيل امرأة متزوجة وطالبة علم باستمرار، في صميم معركة الحياة وحيويتها وجدلية صراعها.

ندى صحناوي: هناك أمور كثيرة أشعر فيها بأنني مهمّشة، لكنني سأتناول واحدًا أو اثنين من هذه الأمور. أشعر بأني مهمّشة في لبنان لأنني لا أنتمي إلى أية واحدة من الطوائف المعروفة؛ أنا لا أشعر، مثلًا، أنني مسيحية أو مسلمة أو درزية؛ ولو شاء أحدهم أن يصبغني بلون/ دين معيّن ما فربما أكون أقرب للبوذية أو الكونفوشية وليس من لون أية واحدة من الطوائف اللبنانية. أشعر أنني مهمّشة لأن هذا موقف وشعور الأقلية في لبنان. وهذا التهميش هو ظلم يسري على كل من يريد ويعتبر أن حرية الانتماء هو حقٌّ أساسيٌّ من حقوق الإنسان.

من جهة ثانية، أشعر أنني مهمّشة على الصعيد الجمالي في المجال العام، وهو أمر مؤلم غالبًا. أقدّم مثلًا عن أية قرية صغيرة في فرنسا، إيطاليا أو المغرب، وحتى عندما يكون الناس فيها على حافة الكفاف فهم متنبهون، مع ذلك، إلى كل التفاصيل الصغيرة التي تنمّ عن ذوق عام رهيف. بالمقابل الناس عندنا يتصفون بـ«التفشيخ» لكنهم غير متنبّهين لإسباغ مجالاتهم العامّة بالذوق الجمالي.

إنني أقضي بضعة أشهر في السنة في ساراسوتا- فلوريدا حيث جمالية المكان متوفّرة، لكن هناك أشعر بالتهميش سياسيًّا وثقافيًّا. يبدو لي أن الهروب من التهميش غير ممكن. التهميش هو قدر.

نهوند القادري عيسى: يبدو لي أن الشعور بالتهميش على المستوى الشخصي يرتبط بمسألتين: الوعي والقبول. فقد يكون المرء مهمّشًا لكنه غير واعٍ لهامشيته، وقد يكون في

المركز إنما غير راضٍ عن وضعه. وفي معرض تساؤلي فيما إذا كنت واعية لتهميشي الخاص، وقابلة به؟ وجدتُ لدى التأمّل في مسار حياتي أنني شغلت موقعًا مركزيًّا في الدوائر المهمشة التي تنقلت بينها. وهذا ما أبعد شبهة التهميش عن وعيي، وفعَّل الطاقات الإيجابية الكامنة في داخلي، وساهم في نقلي من حالة المهمشة الطرية العود إلى حالة المهمشة المعاندة الصلبة.

فأنا ولدتُ في كفرشوبا، على تقاطع حدود لبنان/ فلسطين/ سوريا، بلدة نائية، منسية، مقهورة، لم يقو التهميش على طبيعتها الصخرية الوعرة. ولكوني أنتمي لعائلة مقدرة لدى أهل البلدة، كنت أتصرّف بطريقة تليق بسلوك بنات العائلات التي تعد نفسها مركزية، وكان من نتيجتها حرصي على التفوق، وإهمالي لجوانب التسلية واللهو. وفي أسرتي الخاصة المكونة من اثني عشر ولدًا، اجتهدت لأكون شخصًا يعتد به ويعتمد عليه. وفي غمرة اجتهادي هذا لم أشعر أنني كنت محرومة من شيء، لم أذكر يومًا أنني اشتهيت مظاهر الحياة الاستهلاكية التي بدأت آنذاك تتراءى لي من بعيد عبر التلفزة. في السبعينيات تهجرنا قصرًا، بعدما دمر الطيران الإسرائيلي كليًّا البلدة. هربت سيرًا على الاقدام بضعة كيلومترات وأنا أحمل محفظة كتبي كي لا تفوتني شهادة البروفيه، تحت إلحاح أمي، ربما لوعيها الفطري أن التعليم هو المنفذ الوحيد لفك عزلة المهمشين.

فيما بعد تزوجت رجلًا ينتمي لعائلة هامشية على مستوى الحسابات العددية الانتخابية. تلك العائلة باحترامها ودعمها أعطتني دفعًا قويًّا لمتابعة تحصيل شهادة الدكتوراه في فرنسا. هناك أحسستُ أن الآفاق المعرفية فتحت أمامي، رغم مرارة الشعور بالعيش على هامش الحياة الطلابية / الجامعية بسبب اصطحابي لطفليَّ، ورغم مكافحتي المريرة للتهميش اللغوي، ورفقتي المستدامة للقواميس. فأنا درست في مدارس رسمية، ولم تشفع لي علاماتي العالية، باللغة الفرنسية، ولا انتسابي لاحقًا إلى دار المعلمين،فلهجتي لم تك صائبة، ولا تزال.

بعد حيازتي شهادة الدكتوراه، انتسبت إلى الجامعة اللبنانية، ذلك الوسط الأكاديمي الذي قام على جدلية المركز والهامش، سرعان ما أشعرني أنني أستعيد ذاتي من خلاله. فهو رغم الإهمال الرسمي الذي يلفه أشعرني بمتعة التموضع في وسط هامش كبير مرن قادر على إطلاق المبادرات الفردية، دون أي تأطير مسبق. فعشت فيه شغف تدريس طلاب وطالبات من مختلف الأوساط المهمشة، وحفرت طويلًا في الصخر معهم وبهم، وأشعروني بمتعة التمركز في وسط الهامش القادر وحده على تغيير خوارط التهميش وقلب المعادلات لاحقًا. وسرعان ما انخرطت بعالم البحث. ساعدني في ذلك طول البال والجلد اللذين اكتسبتهما نتيجة التنقل بين الهوامش. ولم أتوقف آنذاك عندما وُشي إليَّ أن هناك من يشكك بقدراتي البحثية ربما لكوني أنثى، متهمًا

زوجي بالقيام بعملي. ومع تمرسي في مجال البحث والتدريس، بدأتُ أعي أن آليات البحث في كثير من الأحيان هي ذكورية، وأن النساء أحيانًا يسهمن في تهميش ذواتهن إذا لم يسائلنها. فأنا لم أجرؤ في البداية على طرح فرضيات مغايرة/ جريئة، لكنني مع اتساع التجربة صرتُ أكثر جرأة على طرح فرضيات تقلب المعادلة أو تؤسس لاتجاهات جديدة. وأصبحت أكثر قدرة على ملاحظة لعبة الذكور في محاولة تهميش النساء. فهم يطرحون أمرًا يعتبرون صحته بديهية، وحين تنقضه النساء يمتعضون، محاولين التقليل من قيمة طرحهن بإحالتهن إلى أزواجهن. فهم غالبًا ما تأسرهم فكرة تفوقهم، فيجدون صعوبة في تبديل آرائهم.

تلك كانت تجربتي في التنقل بين مراكز الدوائر المهمشة، أخرقها وأعود إليها ثانية، وأمتع ما فيها تلك اللحظات التي أشعر فيها أني تمكنت من اختراق حاجز اللغات الأجنبية، لا سيما عندما تترجم بحوثي المكتوبة باللغة العربية إليها.

هند الصوفي: أشعر بإرباك حيث إن الكلام عن الهامشية والتهميش ينطلق من الذات، كمن يدلي بمشاعر خاصة جدًّا تتعلق بمعاش، قد يستعيد إلى ذاكرتنا متاعب تغلبنا على بعضها، لكننا ما زلنا نعاني من بعض جوانبها.

هذا المصطلح يعيدني إلى حياتي السالفة والحالية، مذ وعيت على إدراك الحياة بعلاقتي مع الذات أشعر أنني أعيش في الهامش وعلى الهامش، في عائلتي والتمييز الذي لمسته باكرًا كوني بنتًا وليس ولدًا، في هجرتي إلى بيت جدي حيث أتمت جدتي تربيتنا بفوقية عملت فيها دائمًا على تمييزنا عن الغير «نحنا غير شكل». في المدرسة والجامعة حيث ارتبكت الأمور بين جنسيتي المختلفة، كان التحدي بالتوفيق بين قناعاتي من جهة ووضعي الخاص، مما وجهني حتميًّا للانضمام إلى أحزاب ذات طابع أممي، دائمًا كان التهميش يزداد ليشكل معضلة دفعت بي أحيانًا إلى اتخاذ مواقف تتناقض مع قناعاتي...

مهنيًّا، بدأ تهميشي باكرًا وأنا في مرحلة الدراسة الجامعية. كنت متفوقة، غالبًا ما أصحح للأستاذ هفوات معرفية، ما أخاف الآخرين، فعانيت استبعادًا ممنهجًا و«فيتو» لدى تخرّجي، ما حال دون انتسابي إلى كلية اختصاصي في الجامعة اللبنانية إلّا مؤخرًا عندما اختلف القيّمون بين بعضهم البعض وأحيل بعضهم إلى التقاعد، ونقص عدد المتخصصين فاضطروا إليّ... بعد أن ظل ملفي يضيع أكثر من 15 سنة، سنة تلو الأخرى. كنت حينها متعاقدة مع العديد من الجامعات الخاصة، والتي كانت تحترم معرفتي، لكنه النظام الفئوي في البلد كان يهمش طموحي كما غيري، ليعطي الدور لأستاذ الطائفة وليس لشخص الكفاءة...

حاليًّا، لا أزال أعاني من تمييز يهمشني بين مجموعة من الأساتذة «الرجال»، المدعومين سياسيًّا، هم الذين يقيمون الأبحاث للتقدم مهنيًّا، يرفضون بوقاحة بحثًا جيدًا ويقبلون لشلتهم مقالات صحفية يعتبرونها بحثًا أصيلًا، والقيمون على بعض الكليات التي أعلم فيها، ممن يقوم بإدارة الجامعة ومجلسها، ليس لديهم أي رتبة أكاديمية، قد يكون بينهم ممن لديه ماستر أو أقل منه حتى. فالفساد يفضي إلى تهميش العارف والمعرفة. والعدوانية ضد العارفين سببها الكسل والاستكانة وعدم الكفاءة لمن تخرج ووصل «بالواسطة».

كل هذا التهميش قادني إلى تحدٍّ مع الذات، إلى البحث عن الأنا وعن الخصوصية وإلى التعايش مع الواقع والتمرد عليه، إلى التعبير المباشر أو غير المباشر، بشكل أو بآخر. هذه الهامشية والتهميش دفعاني إلى إثبات الذات، إلى تركيب شخصية لي «غير شكل»، مفارقة ومتمايزة أحيانًا...

إنها مقاومة لحماية الكيان والذات. أصبحت أبحث عن ذاتي الـ«غير شكل»، بوسائل إبداعية، وبالتفوق في أماكن أخرى من نضالية واجتماعية. لا أزال حتى الآن أتعاطف فعليًّا وعمليًّا مع المقموعين والمهمشين...

عشت كثيرًا من التهميشات، كانت عبارة «غير شكل» هي الأنموذج الذي وجه مسيرتي وقراراتي المفصلية. كنت أهاب هذا التعبير الذي وضعني في دائرة انتماء خاصة بي، وبتّ أخاف استعماله مع الأولاد، خوفًا من عزلهم في علاقتهم مع الآخرين.

في الواقع، إن ظروف تهميشي أعطتني حافزًا كي أحاول أن أقبل هذا التمايز، بهدف التميز فعليًّا. تهميش خارجي من قبل الآخرين، كنت أعيه في كل مفصل من حياتي، لكنه شكّل لي تحديًا أتجاوزه بين فترة وأخرى. ما زلت أشعر أنني «غير شكل»، بتواضع رافقني كل الوقت، وبشعور بالذنب لا أدري إذا ما كانت مدرستي قد ساهمت بزرعه في ذاتي إلى حد كبير.. ذنب من هذا التميز التي أقنعت ذاتي به ربما لأتقبل الواقع وأجد لنفسي مكانًا فيه... لكنه كان دائمًا مقرونًا بدائرتين أخريين هما التواضع وشعور بالذنب لم أحاول تحليلهما حتى الآن...

مارلين نصر: ليس لدي شعور بالتهميش ولا بالهامشية. فلا أسرتي، طائفتي، قريتي، طبقتي الاجتماعية... كانوا مهمّشين بالمعنى الاجتماعي. لكنني، وفي ما أسمعكم، أراجع موقعي من الموضوع. إذ كان هناك مسألة واحدة تطلبت مني أن أصارع كي لا أكون هامشية: المسألة اللغوية. فأبي بسبب دستوريته كان معرّبًا، وإن كان يعرف الفرنسية، وذلك بعكس مدرستي حيث الوسط هو فرنكوفوني. كما أن أمي التي تنتمي إلى وسط برجوازي متعلّم ليست فرنكوفونية. وأنا، وبالرغم أنني تعلّمت في

الفرنسيسكان، اخترتُ ألّا أُهمّش لغويًّا وثقافيًّا وما ينطوي ذلك على خيارات اجتماعية وثقافية. ومن مظاهر ذلك، أنني لم أكتفِ بدراسة الحقوق في الجامعة اليسوعية بالفرنسية، بل تابعتُ أيضًا البرنامج نفسه بالعربية. أي درست شهادتين معًا. صحيح أن الإدارة تشجع الطلاب على متابعة البرنامجين معًا لكن تلك المتابعة المزدوجة تبقى خيارًا فرديًّا. وأنا اتخذت هذا الخيار.

وحين نلت شهادة الدكتوراه، وبدل السعي للانتساب إلى الجامعة اللبنانية، تفرّغتُ من أجل العمل على ترجمة أطروحة الدكتوراه إلى العربية، شعورًا مني بأن خلاف ذلك كان سيؤدي إلى تهميشي في دائرة اختصاصي. فأنا لو نشرتها في اللغة التي كتبتها بها في فرنسا ـ وكان ذلك مطروحًا عليّ ـ كنت سأكون مهمشة في مجتمعي.

أيضًا لم أدرّس في الجامعة اليسوعية بالرغم من أن ذلك كان سيكون «طبيعيًّا». وأنا درّستُ بعد ذلك في الفرع الأول من معهد العلوم الاجتماعية، لكنني ما لبثتُ أن هربتُ لأن الفرع لم يوفّر لي وسطًا علميًّا، فبدا لي هامشيًّا ومهمشًا. صحيح أن التعليم أمر مسل وحلو وسهل، لكنه ليس المحل الذي أستطيع فيه أن أعطي ما أرغب بإعطائه. كنت كل الوقت أغالب مسألة التهميش. كل ما كتبته بالفرنسية، كنت أعيد كتابته بالعربية كي لا أتهمش عربيًّا. وأكتبه بالفرنسية كي لا أتهمّش عن المحيط العلمي. وهو أمر متعب ويعذّب. وقد أخّرني ذلك بسبب الازدواج بدل التجديد. أما نشري في الخارج فكان مصدرًا للاكتفاء الذاتي وللشعور أنني قادرة على ذلك تمامًا كالرجال الذين ينشرون خارجًا وهم ليسوا أقوى مني.

بعد هجرة أولادي ووفاة سليم (زوجي) كان هناك وضع جديد خلق لي تحديًا إضافيًّا وجديدًا، وقد واجهته بدخولي إلى مركز الوحدة العربية للدراسات مع أن تفضيلي هو القيام بأبحاثي الخاصة. خياري هذا كان تفاديًا لتعرضي لعزلة/ تهميش جذري اجتماعيًّا بسبب هجرة أخواتي وأولادي ووفاة سليم.

أنا أدرك أنني هامشية اجتماعيًّا. لأن المرأة التي تفقد زوجها وهي ليست متقدمة في السن ليس لها مكان في المجتمع، وعليها أن تقاتل كي تبقي على ذلك المكان. لذا، أنا أقمت علاقات مع جيراني، وعدت للعمل في مؤسسة رغم أنني كنت أفضل أن أتفرغ للأبحاث. أي إنني أقاتل كي لا أصبح هامشية. هو أمر متعب. كنت أحب أن أرتاح. أن أترك البلد. لست مهتمة بالحفاظ على موقعي. أنا حميميًّا أفضل أن أقوم بأبحاثي. لكنني أحسست أنني لو قمت بذلك لكنت انعزلت. وهذا مؤذٍ. إذا تركت العمل في مؤسسة، فأنا سأترك البلد وأذهب حيث يسعني أن أبحث وأن أكتب. أنا لا أتحمل / أخاف من العزلة. في الخارج المرأة المنفردة لها موقعها ويمكنها أن تعيش دون أن تعزل. عندنا يتم عزل المرأة الوحيدة. يتعين عليها أن تنتمي لعائلتها وأنا ليس لدي عائلة.

عزّة شرارة بيضون: من جهتي، سوف أتكلّم عن الهامشية الاجتماعية في المجال البحثي، حصرًا. أعتقد أنني مندمجة في قضايا المجتمع اللبناني من موقع هامشي يطمح لأن يكون فاعلًا ومؤثّرًا في مجرياته. والواقع أنني أزداد اندماجًا؛ إذ بتُّ كباحثة في القضايا النسائية، أساسًا، أكثر انخراطًا في أنشطة بحثية هادفة، وأستجيب لطلب ـ حكومي ومدني ودولي ـ على نشاطي البحثي. فيبدو وكأن اندماجي أو هامشيتي، كباحثة وكاتبة، تابعان لدرجة بروز (أو تراجع) قضايا النساء في الخطاب السياسي والثقافي العام، لا تبعًا لموقعي/ صفتي الشخصية.

هكذا، فإن طرح المسألة النسوية في السنوات الأخيرة جعل إسهامي البحثي يتجاوز الدوائر الثقافية والأكاديمية إلى دائرة العمل النسوي وأشخاصه في العمل الاجتماعي، أكان في مجال رسم الاستراتيجيات، أم في مجالات الدعوة والإعلام واللوبيينغ إلخ.، لكن بقيت أبحاثي، مع ذلك، كما بقيت أبحاث غيري من النسويات، خارج الخطاب السياسي العام mainstream. وذلك، بالقياس مع ما يحدث في بلاد أخرى.

سأوضّح ما أحاول قوله: في الوقت الحالي، مثلًا، وبسبب طرح «مشروع قانون حماية النساء من العنف الأسري» في المجال التشريعي والقانوني والإعلامي، فإن دراساتي حول العنف ضد المرأة ونتائجها أصبحت من مفردات خطاب «حملة التشريع من أجل حماية النساء من العنف الأسري» التي تضمّ أكثر من خمسين جمعية تعمل تحت مظلة حقوق الإنسان. لكن خطاب المشرّع، في مجلس النواب مثلًا، خلا تمامًا من نتائج الجهد الذي بذلتْه الباحثات النسويات على امتداد العقدَين السابقَين في هذا المجال. المشرّع، ودودًا كان لقضايا النساء أم مناهضًا لها، لم يقم بإحالة حججه إلى الأبحاث التي أُجريت حول الموضوع، بل لا زال يكتفي بالعودة إلى ثوابت القيم والمعتقدات المجتمعية والدينية أو إلى القوانين والمعاهدات الدولية إلخ.، بحسب الحالة، ويتجاهل نتائج الأبحاث حول النساء وقضاياهن، إن في مفردات حججه أو في صياغاتها.

على صعيد آخر، فقد تغلّبت أدواري الأسرية والاجتماعية والمهنية على صفتي كباحثة؛ وذلك باستثناء فترات من حياتي اتسمت بكثافة العمل البحثي- كما لدى دراستي من أجل نيل شهادة الدكتوراه مثلًا. وكأن هذا العمل البحثي «ترفٌ» ومتعةٌ خاصة غير مسموح لها التنافس مع تلك الأدوار. إلى ذلك، نادرًا ما يناقشني في ما أكتبه الأقاربُ والأصحابُ ممن يعرفون صفتي البحثية. يكتفي بعضهم بالإطراء دون «إسناد» السبب. وحين يناقشني أحدهم، فإن ذلك يتمّ بوصفي نسوية - كما يفهمونها- لا تبعًا لتعبيراتي الخاصّة، ناهيك بالبحثية، عنها. فكوني باحثة ليس بُعدًا من هويتي بالنسبة لهؤلاء الناس سواء كانوا في محيطي الأسري أو الاجتماعي أو حتى المهني.

إلى ذلك، فإن مشاعري تجاه مسألة تهميش كوني باحثة في تصوّر الناس لي قد استقرّت منذ سنوات على رضى كسول، غالبًا، وعلى بعض الأسف، نادرًا. فالرضى مصدره الحرية الواسعة في إشهار اتجاهاتي السياسية والنسوية. أما الأسف فيبعثه فيّ شعورٌ بأن البحث الذي استحوذ على قسط غير قليل من طاقتي لا تزال آثاره محصورة في نطاق الأشخاص /المنظمات الذين أشترك وإيّاهم في حمل قضايا النساء. إن كون ضمور هذا التأثير ذا صلة بضآلة الطلب الاجتماعي/ السياسي عندنا على الأبحاث لا يخفّف من ذلك الأسف؛ بل هو تذكير بحدود إمكاناتنا، نحن النساء، على مواجهة القوى التمييزية ضدّنا، والقائمة حججها على ثوابت الدين والإيديولوجيا والتقليد، من جهة، وعلى تجاهل عنيد للواقع الذي ترصده أبحاثنا، من جهة ثانية.

ألا يشي ذلك بأن مجتمعنا، وفي مؤسساته السياسية خاصّة، لا زال يعمل على تهميشنا، نحن الباحثات النسويات، في واحد من أركان عيشنا ومصادر شغفنا الأساسية؟

* * *

ختامًا، هل كانت محصّلة هذه الطاولة والأفكار التي استقيناها منها ستكون شبيهة لو اجتمع حولها نساء ورجال معًا؟